أثر السياق في القصص القرآني دراسة في تفسير "في ظلال القرآن"

نظمية عمران سرور*
سليمان محمد الدقور

ملخص

اهتمت هذه الدراسة بالحديث عن السياق في القصص القرآني في تفسير "في ظلال القـرآن"، محاولةً الكشف عن مدى أهمية السياق القرآني في دراسة القصص، وقيمة ذلك العلمية.

وتناولت: مفهوم السياق القرآني، وأنواعه، وضوابطه لدى سيد قطب، وإبراز مدى التزامه – رحمه الله – بضوابطه، مما عاد على تفسيره بالفوائد الكثيرة.

وعنيت بإبراز أهمية مراعاة السياق القرآني في دراسة القصص، من خلال الكشف عن مدى عناية سيد ببيان دور السياق في اختيار القصص وترتيبها في السورة القرآنية، وفي اختيار أحداث القصة وتحديد طريقة عرضها.

الكلمات الدالة: السياق، القصص القرآني، تفسير "في ظلال القرآن".

* **كلية الشريعة، الجامعة الأردنية.**

تاريخ تقديم البحث: 2011/10/12. **تاريخ قبول البحث: 2012/2/27.**

© جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2013.

Impact of Context on the Qur'anic Stories
A Study of Tafsir Fi Zilal al-Qur'an (In the Shade of the Qur'an)

Nazmiyyah Umran Eid Soror
Sulayman Muhammad al-Duqour

Abstract

The present study talks about the context of the Qur'anic stories in Tafsir Fi Zilal al-Qur'an. The study attempts to disclose the importance and scientific value of context in the study of the Qur'anic stories.

The study investigated the concept of the Qur'anic context, its kinds, limits and controls in the work of Sayyid Qutub. It also shows Qutub's commitment to these controls and limits, which is considered as an approach from which he benefited a lot in his work.

The study highlighted the importance of considering the context in the study of the Qur'anic stories. It also showed Qutub's concerns about how context affected the selection of the story, its order, events and the way in which it was presented in the Qur'an.

Keywords: Context, Qur'anic Stories, Tafsir Fi Zilal al-Qur'an (In the Shade of the Qur'an)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وصحابته والتابعين له إلى يوم الدين، وبعد:

فقد هيأ الله تعالى لتفسير سيد قطب "في ظلال القرآن"، من اهتم به ودرسه دراسة واعية منصفة، وقد تعددت أشكال هذه الدراسات وتنوعت بين دراسات شاملة متكاملة، ودراسات فرعية متخصصة، وعلى الرغم من هذا التعدد والتنوع فهناك جوانب تحتاج مزيداً من البحث والدراسة، ومن هذه القضايا عناية سيد قطب ورعايته بمسألة السياق في القصص القرآني.

مشكلة الدراسة

تبرز مشكلة الدراسة، من خلال الدور الذي أبرزه سيد قطب للسياق وأثره في موضوع القصص القرآني وتأثيره على دلالات معانيها وأحداثها.

أهمية الدراسة

تظهر أهمية هذه الدراسة من خلال النقاط التالية:

1. تناولها علماً من أعلام التفسير والأدب والفكر الإسلامي، طالما أثار جدلاً في الأوساط العلمية.
2. توضيحها جانباً هاماً من جوانب التفسير، ودعامة من دعاماته وهو السياق في القصص القرآني.
3. تبرز أهمية الفهم الدقيق للقصة وأهدافها وموضوعها، من خلال النظر في السياق القرآني، الأمر الذي يوقفنا على المعاني الدقيقة للنص القرآني بحيث ينسجم مع السياق.
4. إبرازها قيمة السياق عند سيد من خلال مراعاته للسياق في القصص، وذلك لأن القصة القرآنية تشكل شكلاً فنياً ومضموناً موضوعياً واحداً متناسقاً نستطيع من خلاله إعطاء صورة واضحه عن قيمة السياق عند سيد قطب.
5. إضافة دراسة جديدة تبرز قيمة من قيم الظلال ألا وهي قيمة مراعاة صاحبه للسياق القرآني.

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسه إلى الآتي:

1. الكشف عن معنى السياق عند سيد قطب ودلالاته.
2. بيان الجوانب التي راعى سيد فيها السياق في تفسيره للقصص القرآني وقيمته في التأثير على الأحداث والمواقف.

الدراسات السابقة

هناك دراسات موسعة وشاملة عن الظلال، ومن هذه الدراسات:

1. "في ظلال القرآن" دراسة وتقويم، صلاح عبد الفتاح الخالدي، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بإشراف د. أحمد حسن فرحات، سنة 1984م.

   تتحدث هذه الدراسة عن منهج وطريقة سيد في تفسيره، كما تذكر ميزات ومآخذ الظلال وتحللها، وقد طبعت هذه الدراسة.

2. موقف سيد قطب من العقل والفلسفة، محمد إبراهيم العساف، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، بإشراف د. سلمان البدور، سنة 1995م.

   تتحدث هذه الدراسة عن نظرية المعرفة عند سيد قطب وعن نقده للعقل وللفلسفة الغربية.

3. الجوانب التربوية في فكر سيد قطب، محمد عايش عبد الهادي أبو لحية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، بإشراف د. ياسر أحمد الشمالي، سنة 2004م.

   تتحدث هذه الدراسة عن عصر سيد قطب وحياته وفكره السياسي وأبعاده التربوية.

4. الحاكمية في كتاب "في ظلال القرآن" لسيد قطب دراسة تحليلية، علي إبراهيم صالح، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، بإشراف د. عبد الرحيم أحمد الزقة، سنة 2004م.
   تتحدث هذه الدراسة عن عصر سيد قطب وحياته وتصويره للحاكمية، ومفهومها عنده.

لكننا لم نجد دراسة أفردت لابراز قيمة من قيم الظلال، وبخاصة تلك التي تعد أساساً ومقوماً من مقومات تفسير القرآن، وضبط فهمه والتعامل معه.

ونحن نبرز في هذه الدراسة قيمة السياق في الظلال، لأن أكثر ما أعطى للظلال من قيمة التزام صاحبه بالسياق ودلالته، وقد اختصت هذه الدراسة بجانب من جوانب اهتمامه بالسياق وتطبيقاته، وهو القصة القرآنية لأنها تمثل تطبيقاً شاملاً لقواعده في التفسير، وأنموذجاً حياً على التزامه بهذه القواعد وتحديداً السياق، مما يعطي صورة واضحة عن قيمة السياق عند سيد قطب

منهج البحث

تقوم الدراسة على منهجين:

1. المنهج الاستقرائي: وذلك باستقراء المادة المتعلقة بالدراسة في تفسير " في ظلال القرآن".
2. المنهج التحليلي: وذلك بتحليل طريقة المفسر بالاعتماد على السياق وتحليل مادة الدراسة في جوانب تطبيقية تمثيلية.

خطة البحث

تقتضي طبيعة هذه الدراسة أن تكون في مقدمة ومبحثين وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: تشمل مشكلة الدراسة، وأهمية الدراسة، والأهداف المرجو تحقيقها من الدراسة، والدراسات السابقة، والمنهج المعتمد للبحث، وخطة الدراسة.

المبحث الأول: مفهوم السياق، وأنواعه، لدى سيد قطب، ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول : مفهوم السياق لدى سيد.

المطلب الثاني: أنواع السياق لدى سيد.

المبحث الثاني: علاقات السياق بالقصص القرآني في تفسير " في ظلال القرآن"

المطلب الأول: أثر السياق في اختيار القصص في السورة القرآنية.

المطلب الثاني: أثر السياق في ترتيب القصص داخل السور القرآنية.

المطلب الثالث: أثر السياق في اختيار أحداث القصة.

المطلب الرابع: أثر السياق في تحديد طريقة عرض أحداث القصة.

الخاتمة: تحتوي على أهم النتائج والتوصيات التي توصلتْ إليها الدراسة.

وأخيراً: قائمة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها الدراسة.

وكل عمل بشري لا يخلو من النقص، فلا كمال إلا لله، ولا استعانة إلا بـالله، ولا اتكـال إلا على الله، ونستغفره سبحانه من كل عثرة وزلة، ونسأله أن يتقبل منا هذا الجهد المتواضع، عمـلاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يستخدمنا لنصرة دينه، وخدمة كتابه، إنه سبحانه نعم المـولى ونعـم النصير.

المبحث الأول

مفهوم السياق، وأنواعه، لدى سيد قطب

ويحتوي هذا المبحث على مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم السياق لدى سيد.

المطلب الثاني: أنواع السياق لدى سيد.

المبحث الأول

مفهوم السياق، وأنواعه، لدى سيد قطب

لا بد قبل ذكر مفهوم السياق عند سيد قطب- رحمه الله – من ذكر مفهوم السياق لغة واصطلاحاً:

السياق لغـة

يعد المعنى اللغوي للكلمة أساساً لتحديد مفهومها الاصطلاحي، لذلك سأذكر بعض ما ذكره أصحاب المعاجم في معنى مادة "سوق"، من هذه الأقوال:

- ما ذكره الأزهري – رحمه الله – في "معجم تهذيب اللغة" قال: "تساوقت الإبل تساوقاً: إذا تتابعت".[1]

- ما ذكره ابن فارس – رحمه الله – في "معجم مقاييس اللغة" قال: "السين والواو والقاف أصلٌ واحد وهو حدو الشيء".[2]

وبالرجوع إلى معاجم أخرى، وجدت أن الجميع يتفق على أن معنى السياق اللغوي يدور حول: اللحوق والتتابع والانتظام في الحركة، الناتج عن الانسجام والترابط لبلوغ هدف محدد[3]. وهذا ما توصل إليه دارسو السياق.[4]

السياق اصطلاحا

ظهرت كلمة السياق عند علمائنا الأوائل[5] – رحمهم الله تعالى-، ولكنهم لم يهتموا بتحديد تعريف له، بقدر اهتمامهم به من الناحية التطبيقية، من حيث أهميته وآثاره على التفسير، فلذلك حاول دارسو السياق المحدثون صياغة تعريف جامع مانع للسياق، ووجدت أكثر هذه التعريفات إيفاء بمعنى السياق هو تعريف الدكتور المثنى عبد الفتاح، حيث عرفه بأنه: "تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال "[6].

وذلك لتميز تعريفه بما يلي:

1. تحقيقه معنى التتابع وهو المعنى اللغوي للسياق.
2. إظهاره أن نظم الألفاظ تابع للمعاني القرآنية وليس العكس، من خلال إبرازه لدور المعاني في إيصال الغاية المنشودة.
3. تمييزه سياق المقال (تتابع المعاني) عن سياق الحال (الظروف المحيطة بالمتلقي)، وأكد أن السياق القرآني مرتبط بسياق المقال، ومتناسق مع سياق الحال، وذلك لتحقيق هدفه المنشود في إيصال المعنى المراد. [7]

المطلب الأول

مفهوم السياق لدى سيد [8] – رحمه الله-

من خلال دراسة عبارات سيد الدالة على السياق في تفسيره، ونماذجه يتـضح أن سـيد لـم يختلف مفهومه للسياق عن مفهوم العلماء، كما أنه لم يصرح بمفهوم للسياق في تفسيره، وإنما يجد

عبارات محددة وواضحة، يستنبط منها مفهوم السياق لديه، وهذا المفهوم يتمثل بأنه: "تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال" [9]، ومن هذه العبارات الدالة على مفهوم السياق:[10]

أولاً: ما صرح فيه بلفظ "التتابع للمعاني"، ومن ذلك:

1) قوله في مقدمة تفسير سورة القيامة: "وقد عرضنا نحن لحقائق السورة ومشاهدها فرادى لمجرد البيان، وهي في نسق السورة شيء آخر، إذ أن تتابعها في السياق، والمزاوجة بينها هنا وهناك، ولمسة القلب بجانب من الحقيقة مرة، ثم العودة إليه بالجانب الآخر بعد فترة... كل ذلك من خصائص الأسلوب القرآني...".[11]

ثانياً: ما أشار به إلى "ترابط المعاني للوصول إلى غاية موضوعية"، يدور حولها محور السورة القرآنية، ومن ذلك:

1) قوله في مقدمة الجزء الثالث: "وهذه البقية الباقية من سورة البقرة هي استطراد في موضوعها الرئيس الذي شرحناه في مطلع الجزء الأول، والذي ظللنا نطالعه في سياق السورة حتى نهاية الجزء الثاني، وهو إعداد الجماعة المسلمة في المدينة لتنهض بتكاليف الأمة المسلمة".[12]

ثالثاً: ما صرح به "بتدفق المعاني دون انفصال أو انقطاع"، ومن ذلك:

1) قوله في مقدمة سورة الأنعام: " والواقع أن سياق السورة في تماسكه وفي ترافعه وفي تدفقه يوقع في القلب أن هذه السورة نهر يتدفق، أو سيل يتدفع، بلا حواجز ولا فواصل.[13]

2) قوله في مقدمة سورة الملك: " حقائق السورة وإيحاءاتها تتوالى في السياق، وتتدفق بلا توقف...، مما يصعب معه تقسيمها إلى مقاطع".[14]

هذه التعبيرات، تبرز محددات ومعالم مفهوم السياق لدى سيد – رحمه الله -، وترشد إلى ما يلي:

1. أن أكثر الألفاظ التي استخدمها للدلالة على السياق، هو لفظ السياق ذاته، وذلك دلالة على وضوح مفهوم السياق عنده، وعدم اختلاطه بغيره من المفاهيم.

2. أن السياق القرآني يعنى باللفظ والمعنى والنظم بدرجة واحدة، يرتكز على التتـابع بـشقيه: تتابع المعاني في الألفاظ للوصول إلى غاية موضوعية، وتتابع الموضوعات للوصول إلـى المعنى المراد، وأكد على شرط التتابع من غير انفصال ولا انقطاع.

وهذا المفهوم ناشئ من منهج سيد في التفسير القائم على النظـرة الكليـة الـشاملة للقـرآن، والهادف إلى إبراز مقاصده الأساسية بالمحافظـة علـى جـو الـنص فيـه، وبيـان الوحـدة الموضوعية.[15]

المطلب الثاني

أنواع السياق لدى سيد – رحمه الله -

راعى سيد في تفسيره عدة أنواع للسياق هي: [16]

أولاً: سياق القرآن العام:أهم القواعد التي سار عليها سيد في تفسيره: النظـرة الكليـة الـشاملة للقرآن، وإبراز وحدته الموضوعية القائمة على اعتباره كلاً متناسقاً ومتناسباً، تتعانق آياتـه وسوره -وإن اختلفت في أسلوبها وملامحها ومناهجها- وتتناسق وتتابع معانيه ودلالاتـه، لتحقيق غاياته[17].

ويظهر السياق القرآني العام عند سيد من خلال بعدين اثنين هما:

أولاً: المقاصد التي جاء القرآن الكريم لتحقيقها: وقد صرح سيد بذكر هذه المقاصد، وعمل علـى إبرازها في تفسيره، فذكر مقاصد القرآن مجتمعة[18]، كما ذكرهـا متفرقـة، ومـن هـذه المقاصد:

أ- تصحيح العقيدة والتصور، وذلك من خلال:

1. بيان حقيقة الألوهية، والربوبية، والعبودية، وخصائصها - ومن أهم خصائص الألوهية بنظره الحاكمية – وتحديد الصلة بين الألوهية والعبودية.[19]
2. بيان الأسس التي يقوم عليها عقد الاستخلاف، وأن أساسه تلقي الهدى من الله، والتقيـد بمنهجه في الحياة، ومفرق الطريق فيه إما طاعة الله تعالى، أو طاعة الشيطان.[20]
3. بيان حقيقة الإيمان والإسلام. [21]

4. بيان حقيقة الحياة الدنيا والآخرة، والموت – ومكمن خوف النفس منه - والحياة.[22]

ب- إنشاء أمة، وإقامة دولة، وذلك من خلال تنشئة أفرادها على الهدي القرآني، وإعدادهم إلى مواجهة أعدائهم.[23]

ج- ربط النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالعقيدة، والسعي إلى التهذيب الأخلاقي.[24]

ثانياً: النسق القرآني: ويقصد به تناسق التعبير القرآني من ناحية الأداء والطرائق الفنية[25]. ومن هذه الأساليب:

أ- ربط التشريعات والأحكام والأوامر والنواهي بالعقيدة.[26]

ب- مخاطبة الكينونة البشرية بجملتها؛ ذهناً وعاطفة.[27]

ج- عرض مشاهد القيامة بما يناسب سياق السورة، وموضوعها، وبطريقة تصويرية ناطقة مؤثرة، تشعر المتلقي بأنه يعيش اللحظة في الواقع المنظور.[28]

ح- سياقة القصص القرآني، بأسلوب خاص[29]: إذ يختار حلقة القصة بما يناسب موضوع السورة، ويتناسب معها، ويترك فجوات بين الأحداث، وقد يترك بعض الأمور كأسماء الأماكن والأعداد مبهمة، لتحقيق غاية معينة، ولتوجيه التركيز إلى الغاية من القصة.[30].

ثالثاً: سياق السورة القرآنية: برز سياق السورة لدى سيد من عنايته بالوحدة الموضوعية لها، ببيان التناسب الموضوعي في موضوعات السورة القرآنية، والتناسق الفني في صياغتها وأساليب عرضها، واهتم بدراسة سياق السورة القرآنية، ليصل من خلاله إلى التركيبة المقصدية للسورة، وإلى تميز كل سورة بشخصية خاصة، وإن تشابهت في الموضوع التي تعالجه، فقال في مقدمة سورة البقرة: "لكل سورة من سوره شخصية مميزة! شخصية لها روح، يعيش معها القلب، كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس! ولها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسة مشدودة إلى محور خاص. ولها جو خاص، يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو، ولها إيقاع موسيقي خاص، إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة، وهذا طابع عام في سور القرآن جميعا"[31]. وقصد سيد بسياق

السورة: تتابع المعاني المنتظمة في السورة القرآنية، سواء أكانت ذات موضوع واحد أم متعددة الموضوعات، بنسق خاص، للوصول إلى الغاية المقصدية للسورة القرآنية.

ثالثاً: سياق الدرس القرآني ويعني به: تتابع المعاني المنتظمة في مقاطع الدرس الواحد لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود بما يتناسب مع سياق السورة.

ومن الأمثلة على ذلك: ذكره ترابط معاني مقاطع الدرس الواحد وتتابعها، وذلك عند البدء بتفصيل الدرس القرآني، ومن الأمثلة على ذلك: حديثه عن الدرس الأول في سورة البقرة حيث قال: "يأخذ السياق في بيان صفة المتقين، ثم ينتقل إلى صورة الكافرين، ثم ينتقل إلى صورة المنافقين"[32]. وهذا دليل على ترابط المعاني، والأمثلة على ذلك كثيرة.

رابعاً: سياق المقطع القرآني ويعني به: تتابع المعاني المنتظمة في ألفاظ الآيات، لبيان المعنى المراد، في بلوغ الغاية الموضوعية، بما يتناسب مع سياق السورة.

ومن أوجه عناية سيد – رحمه الله – بسياق المقطع القرآني، إبرازه لترابط معاني آيات المقطع الواحد. ومن الأمثلة على ذلك المقطع الأول من سورة البقرة، وهو يتكون من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١ – ٢] هذا المقطع يتحدث عن إعجاز القرآن، وأنه لا شك فيه ولا ريب "ومن أين يكون ريب أو شك، ودلالة الصدق واليقين كامنة في هذا المطلع، ظاهرة في عجزهم عن صياغة مثله، من مثل هذه الأحرف المتداولة بينهم، المعروفة لهم من لغتهم، وهذا الكتاب الهدى حقيقته، والهدى طبيعته، والهدى كيانه، والهدى ماهيته، ولكن لمن يكون ذلك الكتاب هدى ونوراً ودليلاً ناصحاً مبيناً؟ للمتقين.."[33].

خامساً: سياق الآية القرآنية: راعى سيد قطب في تفسيره سياق الآية في السورة القرآنية، فكان يفسر الآيات تفسيراً تحليلياً، رغم تفسيره الإجمالي للسورة ولدروسها ومقاطعها، فعمل على إبراز التناسق بين مفردات الآية وجزئياتها، وبين الآية والسياق الواردة فيه، وذلك بناء على رأيه في توقيفية ترتيب الآيات القرآنية.[34]

ويعني سيد بسياق الآية أنه: تتابع المعنى أو المعاني في ألفاظ الآية القرآنية لبيان المعنى المراد، بما يناسب سياق السورة.

ومن أوجه عناية سيد – رحمه الله – بسياق، بيان المعنى العام الإجمالي للآية المنسجم مع السياقات كلها، ومن الأمثلة على ذلك: تخصيصه لدلالة الآية بناء على سياقها، مثل: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢] قال في تفسيره: "النص عام في النهي عن تمني ما فضل الله بعض المؤمنين على بعض، من أي أنواع التفضيل، والتوجه بالطلب إلى الله، وسؤاله من فضله مباشرة، بدلاً من إضاعة النفس حسرات، في التطلع إلى التفاوت، وبدلاً من المشاعر المصاحبة لهذا التطلع...، النص عام في هذا التوجيه العام. ولكن موضعه هنا من السياق، وبعض الروايات عن سبب النزول، قد تخصص من هذا المعنى الشامل تفاوتاً معيناً، وتفضيلاً معيناً، هو الذي نزل هذا النص يعالجه، هو التفاضل في أنصبة الرجال وأنصبة النساء، كما هو واضح من سياق الآية في عمومها بعد ذلك".[35]

يلاحظ من هذا المطلب براعة سيد في إبراز الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، وللسورة القرآنية، وتميزة في تقسييم السورة إلى دروس ومقاطع متلائمة مع سياقها العام، ودقته في تحديد حدود سياقية للدرس والمقطع.

المبحث الثاني

علاقات السياق بالقصص القرآني في تفسير "في ظلال القرآن"

ويحتوي هذا المبحث على أربعة مطالب:

المطلب الأول: أثر السياق في اختيار القصص في السورة القرآنية.

المطلب الثاني: أثر السياق في ترتيب القصص داخل السور القرآنية.

المطلب الثالث: أثر السياق في اختيار أحداث القصة.

المطلب الرابع: أثر السياق في تحديد طريقة عرض أحداث القصة.

المبحث الثاني

علاقات السياق بالقصص القرآني

يلحظ من المبحث السابق عناية سيد قطب – رحمه الله – في تفسيره بالسياق القرآني، وهذه العناية برزت بشكل واضح في بيانه للعلاقات المترابطة بين السياق والقصص القرآني، من خلال بيان أثر السياق فيما يلي:

1. أثر السياق في اختيار القصص في السورة القرآنية.
2. أثر السياق في ترتيب القصص داخل السور القرآنية.
3. أثر السياق في اختيار أحداث القصة.
4. أثر السياق في تحديد طريقة عرض أحداث القصة.

وسأقوم بتوضيح هذه الأثار في مطالب هذا المبحث من خلال التطبيقات والأمثلة.

وتم اختيار عدد من الأمثلة التي برزت فيها رعاية سيد قطب للسياق في القصص القرآني دون غيرها، لأنها الأوضح والأشمل وعليها مدار المعاني ووضوحها، ويقاس عليها غيرها.

المطلب الأول

أثر السياق في اختيار القصص في السورة القرآنية

لقد عني العلماء بدراسة القصص القرآني في مؤلفاتهم، وتفاسيرهم، ومن هؤلاء سيد قطب – رحمه الله – صاحب التصوير، حيث وضح طريقة القرآن في عرض القصص في كتابه "التصوير الفني في القرآن"، وبين أن طريقة القرآن في عرض القصص قائمة على أساس التصوير، والوصف والحوار، بما يناسب سياق القصة، والسورة الواردة فيها، ويجعلها أكثر تأثيراً في النفوس، وأكد على ذلك في بداية تفسيره، قائلاً: "يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدى بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب" (36).

وطبق سيد هذه النظرية في تفسيره " في ظلال القرآن" والتزم بالسياق القرآني للقصص، فلم يلجأ للإسرائيليات، ولم يتطرق للخوض في المبهمات. (37)

ويتميز القرآن الكريم بأسلوبه الخاص في سياقة القصص القرآني، حيث يختار لقطات حية من الوقائع التاريخية، ويعرضها بأسلوبٍ مشوق ومثير، يهبها الحياة، ويبعدها عن التفصيلات والجزئيات التي تصرف الذهن عن العبرة الواردة في القصة.(38)

وذلك لدور القصص البارز في تحقيق أهداف القرآن في إعداد الفرد والجماعة المسلمة، ومواجهة مقتضيات المعركة مع الجاهلية في مراحلها المتعددة، شأنه شأن السور التي ورد فيها، وهدفه هدفها، لذلك جاء متناسقاً مع سياقها وجوهرها وموضوعها، متوافقاً مع أهدافها.(39)

واعتنى سيد في تفسيره بإبراز مناسبة القصص للسياق الوارد فيه، وذلك من خلال إبرازه لدور السياق في اختيار القصص المرادة في السورة القرآنية.

ومن الأمثلة على ذلك:

1. بيان سيد لدقة اختيار موضع قصة استخلاف آدم – عليه السلام- الواردة في سورة البقرة، وتناسبها مع موضوع السورة قائلاً: "إن السياق - فيما سبق - يستعرض موكب الحياة، بل موكب الوجود كله، ثم يتحدث عن الأرض - في معرض آلاء الله على الناس - فيقرر أن الله خلق كل ما فيها لهم .. فهنا في هذا الجو تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض، ومنحه مقاليدها، على عهد من الله وشرط، وإعطائه المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة. كما أنها تمهد للحديث عن استخلاف بني إسرائيل في الأرض بعهد من الله ثم عزلهم عن هذه الخلافة وتسليم مقاليدها للأمة المسلمة الوافية بعهد الله (كما سيجيء) فتتسق القصة مع الجو الذي تساق فيه كل الاتساق"(40). وقصة استخلاف آدم – عليه السلام – احتوت على عدد من التوجيهات والأسس التي يقوم عليها التصور الاجتماعي والأوضاع الاجتماعية، وهذا يتناسب مع سياق السورة وموضوعها العام في إعداد الجامعة المسلمة لحمل أمانة الدعوة. (41)
2. ذكر سيد مناسبة قصة إبراهيم – عليه السلام - دون غيرها للسياق في سورة الأنعام قال: "القضية الكبيرة التي تعالجها السورة هي قضية الألوهية والعبودية في السماوات

والأرض، ولكن المناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك، المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة، هي ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم، ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور من الذبائح والثمار والأولاد- أي أن السورة جاءت لرد اقتراحات المشركين، ورد شبهاتهم، بإقامة الحجج على إثبات الألوهية والربوبية- وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته في تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات، ومن هذه الأدلة، سياقة قصة إبراهيم - عليه السلام – من جهة إقامة البراهين والأدلة على إثبات الألوهية، والحجة على المشركين".[42]

3. بيان سيد لتناسب القصص الواردة في سورة الكهف، فيما بينها، وتناسبها مع سياق السورة، قال: "القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة، ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة صاحب الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس، وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين.

ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومئة آية، ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها.

أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حوله سياقها، فهو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة.

ويتساوق فيها البدء والختام، في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك، وإثبات الوحي، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث.

ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة في صور شتى..... ثم يذكر هذه الصور.

ثم يقول بعد ذلك: "وهكذا نجد محور السورة هو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج الفكر والنظر، وتصحيح القيم بميزان العقيدة، ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئيسة في أشواط متتابعة متناسقة.

حيث تبدأ السورة بالحمد لله الذي أنزل على عباده الكتاب للإنذار والتبشير، تبشير المؤمنين وإنذار الذين قالوا: اتخذ الله ولداً، وتقرير أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء

والاختبار، والنهاية إلى زوال وفناء، ويتلو هذا قصة أصحاب الكهف، وهي نموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها، والالتجاء إلى رحمة اللّه في الكهف، هرباً بالعقيدة أن تمس.

ثم يتلوها توجيه الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - أن يصبر نفسه مع الذين يـدعون ربهـم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وأن يغفل الغافلون عن ذكر اللّه، ثم تجيء قصة الجنتين تـصور اعتزاز القلب المؤمن باللّه، واستصغاره لقيم الأرض، وتقرير القيم الحقيقية الباقية.

ثم تعرض عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة تتوسطها إشارة قصة آدم وإبليس، وينتهـي ببيان سنة اللّه في إهلاك الظالمين، ورحمة اللّه وإمهاله للمذنبين إلى أجل معلوم. ثم بعد ذلك تأتي قصة موسى مع العبد الصالح، وقصة ذي القرنين. ثم تختم السورة بمثـل مـا بـدأت: تبـشيرا للمؤمنين وإنذاراً للكافرين، وإثباتاً للوحي وتنزيهاً للّه عن الشريك ".[43]

المطلب الثاني

أثر السياق في ترتيب القصص داخل السورة القرآنية

ترتيب القصص في سور القرآن الكريم ترتيب بديع، ذو سر عجيب يتجلى في مظاهر عـدة، فقد يقدم في سورة ما يؤخر في غيرها، أو قد يقدم ما حقه في الترتيب الزمني التـأخير، وذلـك يعود لمنهج السورة في ترتيب قصصها بما يناسب موضوعها وأهدافها، ويتناسق مع سياقها.

وفي هذا الميدان الرحب يظهر عدد من التسؤلات حول المتشابه اللفظي في القصص القرآني، ومن هذه التساؤلات:

1. هل للسياق دور في ترتيب القصص القرآني في السورة القرآنية؟
2. ما هو سبب تقديم قصة على أخرى في سورة وتأخيرها في سورة أخرى؟
3. ما السبب الداعي لاختلاف أسلوب القصص القرآني في سور القرآن الكريم؟

وقد عني سيد في تفسيره بإبراز دور سياق السورة في ترتيب القصص الوارد فيـه، ممـا يساعد على إجابة هذه التسؤلات، ذلك من خلال:

أولاً: بيان سيد أن ترتيب القصص القرآني في السورة القرآنية يعتمد على السياق، وتحديد أهدافه، وليس على الترتيب التاريخي، وذكر ذلك في تفسير سورة الشعراء التي تعتبر أكثر السور تعداداً لقصص الأنبياء، وابتدأت بذكر قصة موسى ثم إبراهيم ثم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب – عليهم السلام – [44]، قال: "كما رجع السياق القهقرى في التاريخ من قصة موسى – عليه السلام- إلى قصة إبراهيم– عليه السلام-، كذلك يرجع القهقرى من قصة إبراهيم – عليه السلام- إلى قصة نوح– عليه السلام-. إن الخط التاريخي ليس هو المقصود هنا، بل المقصود هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب". وهذا هو عنصر أساسي في سياق السورة التي سيقت لأجل بيانه القصص.[45]

ثانياً: بيان سيد لدور السياق في تقديم قصة مريم على قصة زكريا – عليهما السلام- في سورة آل عمران بينما قدمت قصة زكريا على قصة مريم – عليهما السلام- في سورة مريم قال: "القصص الذي ورد في سورة آل عمران عن مولد عيسى عليه السلام، ومولد أمه مريم، ومولد يحيى – عليهما السلام- ، وبقية القصص جاء رداً على ما أراد الوفد إطلاقه من الشبهات. وورود هذا القصص في هذه السورة على هذا النحو يمضي مع طريقة القرآن العامة في إيراد القصص لتقرير حقائق معينة يريد إيضاحها، وغالباً ما تكون هذه الحقائق هي موضوع السورة التي يرد فيها القصص، فيساق القصص بالقدر وبالأسلوب الذي يركز هذه الحقائق ويبرزها ويحييها.

والقضية الأصيلة التي يركز عليها سياق السورة كما قدمنا هي: قضية التوحيد، توحيد الألوهية وتوحيد القوامة، وقصة عيسى – عليه السلام- تؤكد هذه الحقيقة، وتنفي فكرة الولد والشريك، وتستبعدهما استبعاداً كاملاً وتظهر زيف هذه الشبهة وسخف تصورها، وتبسط مولد مريم وتاريخها، ومولد عيسى وتاريخ بعثته وأحداثها، بطريقة لا تدع مجالاً لإثارة أية شبهة في بشريته الكاملة، وأنه واحد من سلالة الرسل، شأنه شأنهم، وطبيعته طبيعتهم، وتفسر الخوارق التي صاحبت مولده وسيرته تفسيراً لا تعقيد فيه ولا غموض، من شأنه أن يريح القلب والعقل، ويدع الأمر فيهما طبيعياً عادياً لا غرابة فيه، لذلك قدم قصة مريم ومولد عيسى – عليه السلام – لقربهما من سياق رد الشبهات الواردة في حق مولده – عليه السلام -".[46]

أما سورة مريم فيدور سياقها "على محور التوحيد ونفي الولد والشريك، ويلم بقضية البعـث القائمة على قضية التوحيد، والقصص هو مادة هذه السورة، ويستهدف إثبات الوحدانية والبعـث، ونفي الولد والشريك، فإن سياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية، والظل الغالـب في الجو هو ظل الرحمة والرضى والاتصال.

فهي تبدأ بذكر رحمة اللّه لعبده زكريا وهو يناجي ربه نجاء، ثم تنتقل لقصة ميلاد – عيـسى عليه السلام".[47]

وذكر سيد أن ذكر قصة مولد يحيى – عليه السلام – قبل قصة مولد عيسى عليه الـسلام – من قبيل تدرج السياق في إقامة الحجة: "والآن فإلى قصة أعجب من قصة ميلاد يحيى – عليـه السلام-، إنها قصة ميلاد عيسى- عليه السلام-، وقد تدرج السياق من القـصة الأولـى ووجـه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل! وهي أعجب وأغرب".[48]

ثالثاً: بيان سيد لاختلاف عدد القصص وأسلوبها الوارد في سورتي يونس وهود، قال: "تتشابه السورتان في الموضوع، وطريقة عرضه، مع احتفاظ كل سورة بشخصيتها الخاصة، وملامحها المميزة.

إن سورة يونس تحتوي على عدد أقل من القصص من سورة هود، كما أن سـورة يـونس تحتوي على جانب من القصص مجمل، إشارة إلى قصة نوح- عليه السلام-، وإشارة إلى الرسل من بعده، وشيء من التفصيل في قصة موسى– عليه السلام- ، وإشارة مجملة إلى قصة يونس– عليه السلام- ، ولكن القصص إنما يجيء في السورة شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقاديـة التي تستهدفها السورة.

أما سورة هود فالقصص فيها هو جسم السورة، وهو وإن جاء شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها إلا أنه يبدو فيه استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البـشري، فلذلك عرضت عدداً أكبر من قصص الأنبياء مع أقوامهم، بنفس الترتيب التاريخي لها، فـذكرت قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى – عليهم السلام – ".[49]

المطلب الثالث

أثر السياق في اختيار أحداث القصة

يتميز القرآن الكريم بطريقة مميزة في اختيار أحداث القصص، وطريقة عرضها وترتيبها، فلا يشترط التزامه بالتسلسل الزمني والتاريخي للأحداث، وذلك لأن "القرآن الكريم كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ، وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، بالقدر والطريقة التي تناسب الجو والسياق، وتحقق الجمال الفني الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوة الحق، وجمال الأداء"[50].

فالسياق هو المحدد الأساسي لأحداث القصة، إذ يعرض من الأحداث ما يتناسب مع مقصد السورة وسياقها، وذلك لأن القصة جزء متمم لبناء السورة، تحمل نفس موضوعها، وتساعد على أداء أهدافها [51]، ويظهر أثر السياق في اختيار أحداث القصة من خلال ما يلي:[52]

1. اختيار الأحداث المناسبة للسياق.
2. ترتيب الأحداث وفق ما يقتضيه السياق.

ويرى سيد أن كل قصة قرآنية جاءت بأسلوب وترتيب يوافق سياق السورة المذكورة فيها، وصرح بذلك في تفسيره، قائلاً: "إن سياقة القصص في القرآن بهذا التنسيق في عرضه، وبهذا التناسق بينه وبين الموضوع الذي يساق فيه، ويستشهد بالقصص عليه، وبهذا التناسب بين أهداف القصص وأهداف السياق في السورة الواحدة، إن هذا كله ليشهد بالقصد والتدبير العميق اللطيف الذي لا يلحظ في الأساطير المبعثرة التي لا تجمعها فكرة، ولا يوجهها قصد ".[53]

وقد أبرز سيد ذلك في تفسيره، من خلال دراسة المواضع المتعددة التي ذكرت فيها القصة وبيان دور السياق في اختيار الأحداث وترتيبها، ومن الأمثلة على ذلك:

1. توضيح سيد لدور السياق في اختيار وترتيب الأحداث في قصة موسى عليه السلام، في بعض السور القرآنية الواردة فيها، ومناسبتها للسياق الواردة فيه، عند تفسيره لقصة موسى – عليه السلام – في سورة الشعراء، قائلاً: "وردت حلقات من قصة موسى - عليه السلام - حتى الآن في سورة البقرة، وسورة المائدة، وسورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وسورة طه. عدا إشارات إليها في سور أخرى.

وفي كل مرة كانت الحلقات التي تعرض منها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة، والسياق الذي تعرض فيه، على نحو ما هي في هذه السورة وكانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السياق.

والحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة والتكذيب، وما كان من غرق فرعون وملئه جزاء على هذا التكذيب، وعقاباً على ائتماره بموسى ومن معه من المؤمنين، ونجاة موسى وبني إسرائيل من كيد الظالمين، وهذه الحلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية، بينها فجوات بمقدار ما يسدل الستار على المشهد، ثم يرفع عن المشهد الذي يليه. وهي ظاهرة فنية ملحوظة في طريقة العرض القرآنية للقصة، والحلقة هنا سبعة مشاهد:

أولها: مشهد النداء والبعثة والوحي والمناجاة بين موسى-عليه السلام - وربه.

ثانيها: مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه برسالته وآيتي العصا واليد البيضاء.

ثالثها: مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى.

رابعها: مشهد السحرة بحضرة فرعون يطمئنون على الأجر والجزاء!.

خامسها: مشهد المباراة ذاته وإيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده.

سادسها: مشهد ذو شقين: الشق الأول مشهد إيحاء الله لموسى أن يسري بعباده ليلاً، والثاني مشهد إرسال فرعون في المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بني إسرائيل.

سابعها: مشهد المواجهة أمام البحر ونهايته من انفلاق البحر وغرق الظالمين ونجاة المؤمنين.

وقد عرضت هذه المشاهد في سورة الأعراف، وفي سورة يونس، وفي سورة طه. ولكنها عرضت في كل موضع من الجانب الذي يناسب ذلك الموضع، وبالطريقة التي تتفق مع اتجاهه، وكان التركيز فيها على نقط معينة هنا وهناك.

ففي الأعراف مثلاً بدأ بمشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصراً، ومر بمشهد السحرة ونهايته سريعاً، بينما توسع في عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك، وعرض آيات موسى مدة إقامته في مصر بعد المباراة، وقبل مشهد الغرق والنجاة. واستطرد بعد ذلك مع بني إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر في حلقات كثيرة، واختصر هذا هنا فلم يشر إليه. بينما توسع في مشهد

الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله، وهو موضوع الجـدل في هذه السورة بين المشركين والنبي صلّى الله عليه وسلّم.

وفي يونس بدأ بمشهد المواجهة مختصراً لم يعرض فيه آيتي العصا واليد، واختصر كذلك في مشهد المباراة. بينما توسع هنا في كليهما، وذلك لأن القصص في سورة يونس عرضت في سياق إيضاح قضية الألوهية والربوبية وتعمقها وتوسيع مدلولها، وبيان مقتضياتها فـي حيـاة البـشر واعتقادهم وعبادتهم وعملهم.

وفي سورة طه توسع في مشهد المناجاة الأول بين موسى وربه. واسـتطرد بعـد مـشهدي المواجهة والمباراة، فصاحب بني إسرائيل في رحلتهم طويلاً، ولم يجاوز هنـا مـشهد الغـرق والنجاة. وذلك لأن السياق في سورة طه يشف عن رحمة الله ورعايته، لمن يـصطفيهم لحمـل رسالته وتبليغ دعوته". (54)

2. بيان سيد لتناسب حلقة ميلاد موسى – عليه السلام - في سورة القصص مع سياق السورة، حيث عرضت قصة ميلاد موسى عليه السلام في بداية السورة، بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص: ١ – ٤٣] قال "بـدأ فـي عرضه منذ أول حلقة في القصة - حلقة ميلاده - ولا تبدأ مثل هذا البدأ فـي أيـة سـورة أخرى من السور الكثيرة التي وردت فيها. ذلك أن الحلقة الأولـى مـن قـصة موسـى، والظروف القاسية التي ولد فيها، وتجرده في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة، وضـعف قومه واستذلالهم في يد فرعون، ذلك كله هو الذي يؤدي هدف السورة الرئيس، ويبرز يـد القدرة سافرة متحدية، تعمل وحدها بدون ستار من البشر، وتضرب الظلم والطغيان والبغي ضربة مباشرة، عندما يعجز عن ضربها البشر، وتنصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة، وتمكن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية.

وهو المعنى الذي كانت القلة المسلمة المستضعفة في مكة في حاجة إلـى تقريـره وتثبيتـه، وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى معرفته واستيقانه.

ولقد كانت قصة موسى - عليه السلام - تبدأ غالباً في السور الأخرى من حلقة الرسالة - لا من حلقة الميلاد - حيث يقف الإيمان القوي في وجه الطغيان الباغي، ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية، فأما هنا فليس هذا المعنى هو المقصود، إنما المقصود أن الشر حين يتمحض يحمل سبب هلاكه في ذاته، والبغي حين يتمرد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر، بل تتدخل يد القدرة، وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم، فتنقذهم وتستنقذ عناصر الخير فيهم، وتربيهم، وتجعلهم أئمة، وتجعلهم الوارثين.

فهذا هو الغرض من سوق القصة في هذه السورة، ومن ثم عرضت من الحلقة التي تؤدي هذا الغرض وتبرزه، والقصة في القرآن تخضع في طريقة عرضها للغرض المراد من هذا العرض. فهي أداة تربية للنفوس، ووسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادئ، وهي تتناسق في هذا مع السياق الذي تعرض فيه، وتتعاون في بناء القلوب، وبناء الحقائق التي تعمر هذه القلوب.

والحلقات المعروضة من القصة هنا هي: حلقة مولد موسى - عليه السلام - وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته. وحلقة فتوته وما آتاه الله من الحكم والعلم، وما وقع فيها من قتل القبطي، وتآمر فرعون وملئه عليه، وهربه من مصر إلى أرض مدين، وزواجه فيها، وقضاء سنوات الخدمة بها. وحلقة النداء والتكليف بالرسالة. ثم مواجهة فرعون وملئه وتكذيبهم لموسى وهارون، والعاقبة الأخيرة - الغرق - مختصرة سريعة".[55]

3. بيان سيد لمناسبة ذكر قصة فداء إبراهيم – عليه السلام- بابنه إسماعيل – عليه السلام- لسياق سورة الصافات، "وحلقة جديدة لا تعرض في غير هذه السورة، من قصة إبراهيم – عليه السلام- وهي الخاصة بحادث الرؤيا والذبح والفداء، مفصلة المراحل والخطوات والمواقف، في أسلوبها الأخاذ وأدائها الرهيب! ممثلة أعلى صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم، في عالم العقيدة، في تاريخ البشرية الطويل، وجاءت في سياق هذه السورة المتحدثة عن بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك، فكانت هذه القصة أكبر دليل على الامتثال المطلق لأوامر الله".[56]

المطلب الرابع

أثر السياق في تحديد طريقة عرض أحداث القصة

للقرآن الكريم أسلوبان أساسيان في عرض القصص، هما:[57]

1) أسلوب الإجمال: أي على طريقة مشاهد قصيرة موجزة وخاطفة، وهـذا الأسـلوب اتبعـه القرآن في القصص التي وردت في أوائل الدعوة، وذلك لأن غرض هذه القصص تحـذير مشركي مكة من العناد والتكذيب والإصرار على الباطل، وتخويفهم من المصير الذي يؤول إليه المكذبون، وتمتاز هذه القصص بإخفاء أسماء الشخصيات.

2) أسلوب التفصيل: أي تعرض بمشاهد طويلة وبطيئة وأكثر تفصيلاً ويبـرز فيهـا عنـصر الشخصية.

والسياق هو المحدد للأسلوب المراد لعرض القصة، بما يناسب سياقها، ويبرز الحقائق الواردة فيه.[58]

وأبرز سيد في تفسيره، دور السياق في تحديد أسلوب وطريقة عرض القصص القرآني، مما يثبت نفي التكرار في القصص القرآني، وصرح سيد – رحمه الله – بذلك فـي تفـسيره قـائلاً: "ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنه حيثما تكررت حلقـة كـان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار".[59]

ومن الأمثلة على بيان سيد لدور السياق في تحديد طريقة عرض القصة:

1. في سورة الشعراء يذكر مشهد الحبال والعصي بشكل مجمل، بقولـه تعـالى: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء: 44] بينما يـذكر مفـصلاً فـي الأعراف بقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٥ - ١١٨] "لا ينفصل السياق

هنا ما كان من أمر حبالهم وعصيهم، كما فصله في سورة الأعراف، ليبقى ظل الطمأنينة والثبات للحق، وينتهي مسارعاً إلى عاقبة المباراة بين الحق والباطل لأن هذا هو هدف السورة الأصيل"[60]. فسياق سورة الشعراء بيان لعاقبة المكذبين، واطمئنان لقلب النبي – صلى الله عليه وسلم – فيوافقه الإجمال، أما سياق الأعراف فهو بيان لمواقف المكذبين والمعاندين على مر العصور، وعاقبة تكذيبهم.

2. إبراز سيد لدور السياق في التفصيل بحلقة مولد موسى – عليه السلام – في سورة القصص، دون غيرها من الحلقات، "ولقد أطال السياق في عرض الحلقة الأولى والحلقة الثانية - وهما الحلقتان الجديدتان في القصة في هذه السورة - لأنهما تكشفان عن تحدي القدرة السافرة للطغيان الباغي، وفيها يتجلى عجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القدر المحتوم والقضاء النافذ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٦] وهذا يوافق سياق السورة المتحدث عن قوة الله تعالى المطلقة التي لا تعلوها قوة، وعلى طريقة القرآن في عرض القصة، قسمها إلى مشاهد، وجعل بينها فجوات فنية يملؤها الخيال، فلا يفوت القارئ شيء من الأحداث والمناظر المتروكة بين المشهد والمشهد، مع الاستمتاع الفني بحركة الخيال الحية".[61]

3. بيان سيد لدور السياق في إجمال حلقة عذاب قوم لوط – عليه السلام- في سورة النمل، قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [النمل: 58] قال: "لا يذكر تفصيلات هنا عن هذا المطر المهلك كما وردت تفصيلاته في السور الأخرى، وذلك لأن سياقة القصص في هذه السورة، جاءت لتثبيت العقيدة من خلال بيان عاقبة المكذبين بها، وعاقبة المؤمنين، دون تفصيل".[62]

يلحظ من هذه الأمثلة وغيرها، أن السياق خيط دقيق، يفصح عن سر التكرار في القصص وحكمته، والوعي عليه هو الذي يحدد قيمة هذا التكرار[63]، وينفي عنه العيب البلاغي المخل، ذلك لأن السياق هو العامل الرئيس في اختيار الحلقة المرادة من القصة، وطريقة عرضها بما يوافق سياقها العام.[64]

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد

فبعد هذا الجهد المتواضع الذي تناولت فيه أثر السياق في القصص القرآني دراسة في تفسير "في ظلال القرآن" يمكن تسجيل النتائج التالية:

- أكثر الموضوعات التي أبرز بها اهتمام سيد بالسياق هي القصص القرآني.
- حظي تفسير "في ظلال القرآن" بقيمة علمية كبيرة، ويعد نقلة جديدة في التفسير، تعيد له روحه الحية، وتبعده عن الخلافات والأساطير، ومما يزيد هذا التفسير مكانـة، التـزام صاحبه بالسياق، ودلالته.
- اهتمام سيد بإبراز أثر السياق في القصص القرآني، وبعده عن الإسرائيليات والأساطير وعن الخوض بالمبهمات في تفسيره للقصص، يجعل تفسيره منبعاً صافياً فـي تفـسير قصص القرآن.
- للسياق دور كبير في حل التسؤلات المثارة حول المتشابه اللفظي في القصص القرآني، من خلال بيان دوره في اختيار القصة، وأحداثها، وطريقة عرضها، ومراعاة السياق في تفسير القصص يعطيها قيمة فنية عالية، ويبرز أهدافها.
- الوعي على السياق يبرهن على نفي التكرار في القصص القرآني، وذلك لأن السياق هو العامل الرئيس في اختيار الحلقة المرادة من القصة، وطريقة عرضها بما يوافق سياقها العام.

وتوصي هذه الدراسة بـ:

- تكثيف الدراسة التطبيقية حول جهود المفسرين السياقية.
- تعنى الكليات الشرعية بتبني المشاريع العلمية للدراسات التطبيقية المفصلة، حول السياق وقيمه وآثاره في توضيح الدلالات، وتوجيه طلبة الدراسات العليا للاهتمام، بهذا الشأن.
- توجيه طلبة الدراسات العليا، وحثهم على القيام بدراسات تطبيقية نقدية، القصد منها مراجعة الأراء وتقويمها من أجل ضبط المفاهيم والدلالات المرتبطة بتفسير القرآن الكريم.

الهوامش

(1) الأزهري. أبو منصور محمد بن أحمد (2001م). معجم تهذيب اللغة. ط1، 4م. (تحقيق: د. رياض زكي قاسم). بيروت: دار المعرفة، بيروت. م2.ص 1598.

(2) ابن فارس. أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا(2001م). معجم مقاييس اللغـة. ط1، 1م، (اعتنى به: د. محمد عوض مرعب و الآنسة فاطمة محمد أصلات). بيـروت: دار إحيـاء التراث. ص 476. وحدو الشيء: أي تتابعه وتساوقه.

(3) انظر: الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد(1992م). المفردات في غريب القـرآن. ط1، 1م. (تحقيق: صفوان عدنان داوودي). دمشق: دار القلم.بيروت: دار الشامية، بيروت. ص 436. والزمخشري. جار الله أبو القاسم محمود بـن عمـر (1998م). أسـاس البلاغـة. ط1،1م. (تحقيق: د. مزيد نعيم ود. شوقي المعري). لبنـان: مكتبـة لبنـان، 1998م. ص 399. وابن منظور(2003م). لسان العرب. د.ط، 9م.(تحقيق: مجموعـة مـن الأسـاتذة المتخصصين). القاهرة: دار الحديث. م4- ص 752- 756. الفيومي. أحمد بن محمد بـن علي المقري (1921م). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعـي. ط1،4م (ج1 +ج2). القاهرة: المطبعة الأميرية. ج1- ص 402- 403. وأنيس، ومنتصر، والصوالحي، وأحمد إبراهيم، وعبد الحليم، وعطية، ومحمد خلف الله. المعجـم الوسـيط (1987م). ط2، 2م. بيروت: دار الأمواج.ج1- ص 464 – 465.

(4) انظر: ملكاوي. بثينه محمود (2000م. القصة القرآنية ومناسبتها للسياق القرآنـي. رسـالة ماجستير. الأردن: جامعة آل البيت. ص 39. ومحمود. المثنى عبد الفتاح(2008م). نظرية السياق القرآني. ط1. عمان: دار وائل. ص14. والمطيري. أحمد لافي فلاح بطي المحيـة (2007م). دلالة السياق القرآني في تفسير أضـواء البيـان للعلامـة الـشنقيطي. رسـالة ماجستير. عمان: الجامعة الأردنية. ص9- 12، والحديد. روان فوزان مفـضي (2010م). السياق القرآني في تفسير أبي السعود العمادي. رسالة ماجستير. عمان: الجامعة الأردنية. ص 29.

(5) من العلماء الذين عنوا بالسياق: الإمام الشافعي، والخطابي، والزمخشري، والرازي، والعـز بن عبد السلام، وابن القيم، والزركشي، وابن كثير، وأبو السعود، والـشنقيطي، والخطيـب الشربيني، ومحمد رشيد رضا، وسيد قطب، وقد ذكر ذلك عبد الوهاب أبو صفية الحارثي، في كتابه دلالة السياق منهج مأمون، وروان فوزان الحديد، في رسالتها السياق القرآني فـي تفسير أبي السعود العمادي.

(6) المثنى، نظرية السياق القرآني، ص 15.

(7) الحديد، السياق القرآني في تفسير أبي السعود العمادي، ص 32: بتصرف.

(8) هو سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي، ولد في قرية "موشة" إحدى قرى محافظة أسـيوط فـي التاسع من تشرين الأول لعام ألف وتسعمئة وستة، نشأ في أسرة متدينـة، وحفـظ القـرآن الكريم في العاشرة من عمره:

(9) انظر: سرور، نظمية عمران (2011م). السياق القرآني في تفسير"في ظلال القرآن". رسالة ماجستير. عمان: الجامعة الأردنية. ص 43- 47.

(10) العبارات الدالة على مفهوم السياق كثيرة ومتفرقة في أجزاء الظلال الست، وإنما ذكـرت هذه العبارات على سبيل التمثيل لا الحصر، ولأنها صريحة الدلالة.

(11) قطب، سيد(2005)، في ظلال القرآن، بيروت:دار الشروق، ج6- ص 3767.

(12) سيد، في ظلال القرآن، ج1 – ص 275.

13: انظر: سيد، في ظلال القرآن، ج2- ص 1022.

(14) انظر: سيد، في ظلال القرآن، ج6- ص 3631.

(15) الخالدي. صلاح عبد الفتاح(2002م). تعريف الدارسين بمناهج المفسرين. ط1.دمشق: دار القلم. ص 609.

(16) انظر: سرور. السياق القرآني في تفسير"في ظلال القرآن".ص 48 – 67.

(17) انظر: الخالدي، صلاح(1986م). المنهج الحركي في ظلال القرآن. جـدة: دار المنـارة. ص151 – 156. والخالدي. تعريف الدارسين. ص 608 و609 و616.

(18) من ذكرها مجتمعة قوله: "الهدف الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه: إنشاء أمة، وإقامـة دولة، وتنظيم مجتمع على أساس من عقيدة خاصة، وتصور معين، وبناء جديد.. الأصل فيـه إفراد الله - سبحانه - بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان وتلقي منهج الحياة وشـريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك" الظلال، ج2 – 825. هذه هي مقاصد القرآن كما يراها سيد قطب، وهو بذلك يوافق الإمام ابن عاشور ببعض المقاصد التي ذكرهـا فـي المقدمة الرابعة لتفسيره "التحرير والتنوير"، ومن هذه المقاصد: إصـلاح الاعتقـاد، تهـذيب الأخلاق، بيان التشريع، سياسة الأمة وصلاحها وحفظ نظامها. ج1 – ص 40 – 41.

(19) ينظر: سيد، فـي ظـلال القـرآن،ج1 – ص496 وج2 – ص826 و888 -890 و907 و916 و1055 و1163 و1166 وج3 – ص 1217 و1753 و1789 وج 4 – ص 1937 وج 6 – ص 3636 و3723.

(20) انظر: سيد، في ظلال القرآن، ج1 – ص 61.

(21) انظر: سيد، في ظلال القرآن، ج5 – ص 2643 وج 6 – ص 328.

(22) انظر: سيد، في ظلال القرآن، ج1 – ص 487 وج 3 – 1388 وج 5 – ص 2751 وج6 – ص 3491 و3492.

(23) انظر: سيد، في ظـلال القـرآن، ج1 – ص 103 و127 و129 و261 وج2 – ص 973 و977 و663 و667 وج3 – ص1494 و1495 و1570 و1578 وج6 – ص3314 و3316.

(24) انظر: سيد، في ظلال القرآن،ج1 – ص 236 وج3 – ص 1181 وج 6 – 3606.

(25) انظر: سيد، في ظلال القرآن،ج2 – ص 721 -723 و822.

(26) انظر: سيد، في ظلال القرآن، ج1 – 236 وج3 – ص 1181 وج6 – ص 3606.

(27) انظر: سيد، في ظلال القرآن، ج2 – 1087 و1092 وج3 – ص1392 و1421 -1424 و1769 و1788.

(28) انظر: سيد، في ظلال القرآن، ج 2 – ص 881 و996 و1068 و1072 و1149 وج4 – ص 2252 وج5– ص 2881 و2916 و3084.

(29) يتم تفصيل سياقة القرآن للقصص القرآني في الفصل القادم بإذن الله تعالى

(30)انظر: سيد، فـي ظـلال القـرآن، ج 4 – ص 2018 و2281 و2336 و2644 و2677 و2911.

(31)سيد، في ظلال القرآن، ج1 – ص27. وينظر: ج1 - ص 432 و474 وج2 – ص1015 و1016 وج3 –ص 1297 وج4 – ص 2123 و1844 وج5 – ص 2918 و3221.

(32) انظر: سيد، في ظلال القرآن، ج1- ص 38 – 45. وينظر عند كل درس في كل سورة.

(33)سيد، في ظلال القرآن، ج1- ص 38: بتصرف. والأمثلة على ذلك كثيرة فهي بكل مقاطع السور القرآنية.

(34) سيد، في ظلال القرآن، ج1 – ص27: بتصرف. وينظر: الخالدي، مـدخل إلـى ظـلال القرآن، ص 114 و115.

(35) سيد، في ظلال القرآن، ج2 – ص 642: بتـصرف. وينظـر: ج2 – ص 678 و1048 وج4 – ص 2017 و2375.

(36) سيد، في ظلال القرآن،ج1 – ص 55. وينظر: قطب، سيد (ت:1983م). التصوير الفني في القرآن. بيروت: دار الشروق. ص 37.

(37)انظر: الخالدي، صلاح(1986م). المنهج الحركي في ظلال القرآن. جدة: دار المنارة. ص 360 و 426.

(38)انظر: نقرة، تهامي (1971م). سيكولوجية القصة في القرآن. تـونس: الـشركة التونـسية للتوزيع. ص 87.

(39) انظر: سيد، في ظلال القرآن. ج1 – ص65- 66 وج2 – ص 873 وج3 – ص 1329 و1344 و1810 وج4 – ص 1843 و1870 و2252. والدقور، سليمان(2007م).
القصص القرآني أهدافه، وخصائصه، ومنهجه. عمـان: دار الفـضيلة. ص 99 – 129. وملكاوي، بثينة.القصة القرآنية ومناسبتها للسياق القرآني. ص 44.

(40)سيد، في ظلال القرآن. ج1 - ص 56.

(41) انظر: سيد، في ظلال القرآن. ج1 – ص 28 و ص 61.

(42) سيد، في ظلال القرآن، ص 1016 و 1137: بتصرف.

(43) سيد، في ظلال القرآن. ج4 – ص 2265: بتصرف. ينظر: ج1- ص 391 – 407 وج4 – ص 2300 – 2308 وج5 – 2897. والأمثلة أكثر من ذلك بكثير ففي أي موضع ذكرت فيه قصة يذكر سيد تناسب هذه القصة مع سياقها.

(44)انظر: سليمان، القصص القرآني، ص 123 – 124.

(45) سيد، في ظلال القرآن، ج5 – ص 2606.

(46) سيد، في ظلال القرآن.ج1 – ص 390: بتصرف بسيط.

(47) سيد، في ظلال القرآن. ج4 – 2301: بتصرف.

(48) سيد، في ظلال القرآن. ص 2304.

(49) سيد، في ظلال القرآن.ج4 – ص 1488: بتصرف. وينظر: ج4 – ص 2077 و 2123 و 2209 و2236 و 2329-2349 و2384 وج5 – 2600.

(50)سيد، في ظلال القرآن. ج1 – ص 55.

(51)انظر: أبو زيد، أحمد(1992م). التناسب البياني في القرآن. الرباط: مطبوعات جامعة محمد الخامس. ص 67. والدقور، سليمان محمد (2005م). اتجاهـات التـأليف ومناهجـه فـي القصص القرآني، رسالة دكتوراه. الأردن: جامعة اليرموك. ص385. وملكـاوي. القـصة القرآنية ومناسبتها للسياق القرآني. ص 44.

(52) انظر: سيد، في ظلال القرآن. ج3 – 1344و 1345و 1810.

(53)سيد، في ظلال القرآن. ج5 – ص 2551. وينظـر: ج1 – ص 391 وج3 – ص 1344 و1345 و1810.

(54) سيد، في ظلال القرآن. ج5 – ص 2588: بتصرف. وينظر: ج3 – ص 1752وج4 – ص2257 و 2329 وج5 – ص 2632و2641 وج6 – ص 3814.

(55)سيد، في ظلال القرآن، ج5 – ص 2676.

(56)سيد، في ظلال القرآن، ج5 – ص 2992. وينظر: ج1 – ص 80 و 110 و 115 و 395 و 516 وج2 801 و 867 و 962 وج3 – ص 1249 و 1332 و 1355 وج4 – ص 1847 و 1900و 1872.

(57)انظر: سيد، التصوير الفني في القرآن الكريم. ص 156. وتهامي، سيكولوجية القصة في القرآن. ص 90 – 92.

(58) انظر: سيد، في ظلال القرآن. ج1 – ص 80 و389 و 391 وج2 – ص 875 و ج3 – ص 1308 و 1344و 1345.

(59)سيد، في ظلال القرآن. ج1 – ص 55.

(60) سيد، في ظلال القرآن. ج5 – ص 2595. وينظر: ج2 – ص 1345وج5 – ص 2964و 2991و 2993.

(61)سيد، في ظلال القرآن. ج5 – ص 2676: بتصرف.

(62) سيد، في ظلال القرآن. ج5 – ص 2624و 26438: بتصرف. وينظر: ج1 – 391 وج2- 1000و 1138 وج3 – ص 1329 و 1810وج4 – 2354.

(63) التكرار الذي قصده سيد: هو ورود القصة في أكثر من موضع، وفي أكثر من صورة، وذلك لتأدية غرضها الفني والنفسي. انظر: تهامي، سيكولوجية القصة في القرآن، ص 116. والدقور، القصص القرآني. ص 76 – 85. وليس "إعادة اللفظ نفسه في سياق واحد، ولمعنى واحد". عباس، فضل حسن(2000م). قصص القرآن الكريم. عمان: دار الفرقان. ص 63.

(64) انظر: الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي(2005م). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. القاهرة: دار الحديث. ج15 – ص 393. وسيد، في ظلال القرآن. ج1 – ص 401.